كلمة في التسامح...

الأب: ميشال غيوم(*)

أتقدّم بالشكر إلى الأستاذ عروس الذي دعاني إلى هذا اليوم الدراسي تحت عنوان: «التسامح والقيم الدينية»، بحكم كوني مديرَ المركز الأسقفي للدراسات والأبحاث، وبحكم مساري العلمي، فأنا متحصِّل على شهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية والعربية بالمعهد البابويّ بروما.

نظراً لضيقِ الوقتِ المخَصَّص لتحضير هذه المداخلة، سأركز على ثلاثِ نقاطٍ تتعلق بمفهومِ التسامح:

النقطة الأولى؛ تستهدف الخلفيةُ الفلسفيةُ من حيث إشكالية الحقيقةِ، أي مقاربةُ الحقيقة باعتبار العلاقة الديالكتيكية بين جوانبها المختلفة، العقائديةِ، الميتافيزيقيةِ، العلمية والأخلاقية، وباعتبار العلاقة الجدلية بين الحقيقة، الكُلّانيّة والسلطة. ويتوقَّف على الفيلسوف إظهارُ هذه العلاقات.

وفي هذا السياق يلاحظ "بول ريكور" سعيَ السُلَط الاجتماعية السياسية الدينية والفكرية لتجميع وتوحيد جوانب الحقيقة كلّها حيث يقول: «ما إن يدخلُ التاريخَ ضرورةُ الحقيقة الوحيدة كمهمة حضارية حتى يسودَ العنفُ وإرادةُ إنهاء المهمة بسرعةٍ، والوحدةُ المحقَّقة للحقيقة هي الأُكذوبة الأصلية».

هذا يعني أن هذا السعي لا يتعلق فقط بقول الحقيقة، بل بفعل الحقيقة، بكونه عملية تنخرط فيها مصالحُ وإرادة القوة على أساس أنّ البحث في الحقيقة قائم على أكذوبة أصلية هي: هذه الروحُ المضلّلةُ، وليست في القول. وبمعنىً أوضحَ كشفُ هذه الإرادةِ المضللة لتوحيد الحقيقة لا يكون فيما تقوله هذه السلطُ بكونه يمثل الحقيقة، بل فيما لا تقوله.

فيما يخص النقطةَ الثانية، التي تتعلق بمسألة الغيرية من خلال رؤية قِيَمِيَّة، حيث إنَّ الانتماءَ لأقلية ما يَطرَحُ مشكلةَ مقاربةِ الأقلية من خلال ثلاثِ وضعيات:

- الآخر مستوَعَباً في الأنا، فتكون الأقلية منصهِرةً في الأغلبية العددية.
- الآخر موجَّهاً إلى تفرّده ومسكوناً برغبته في تكوين جماعته التي تحمي وجودَه ومصالحَه.
- الآخر موجهاً إلى التعايش مع الأغلبية وفق مبادئ الاحترام المتبادَل والمصلحة المشتركة.

هنا نلفت الانتباه إلى قدرة المجتمع على التفكير في الوِحدة دون إهمال الفوارق التي تجعل الآخرَ مختلفاً **ومتميزاً عنِ الآخرين**.

فيما يخص النقطة الثالثة تتعلق بمسألة تمثل الآخر من منطلق أخلاقي. قُرأت النصوصَ المؤسِّسةَ للمركز الأسقفي للدراسات والأبحاث تقول: «أُسس المركز للّقاء والحوار بين الجزائريين والأجانب، المسلمين المسحيين، والناس من الأديان الأخرى، وبلا انتماءٍ دينيّ. يُدعى كلٌّ منهم إلى تجربة التعارف والتفاهم، وكذا تقدير الآخر بصدق دون أحكامٍ مسبَقَةٍ، بعيداً عنِ السعيِ لاستمالة الآخرِ إلى دينٍ ما. إحدى مهمّات المركز هي الدراسة الموضوعية للإسلام والاهتمام بالآخر وتطلّعاته بهدف تطهير الصور المتخيَلة عنه».

أظن أن أهمَّ عملٍ يقع على عاتقِنا هو تطهير تمثّلاتِنا عن الآخر التي أفرزَها الخطابُ الديني والثقافي المؤسِّسُ لهويتنا. أضيف إلى ذلك حاجة ثانية متعلقة بها، وهي معرفة الآخر عبر مصادره وعقائده وتقاليده وخطابه وممارساته، وهذا بطريقة دقيقة قدْرَ الإمكان.

أنتهي باقتباس بعضَ ما قاله «بيير كلافري»، مدير المركز في سنوات السبعينيات: «يتطلب التعايش معرفةٌ حقيقية موضوعية، ولكن قد ينخرط في علاقات القوة التي يجب إدارتها حتى لا تنحرفَ إلى الظلم والتهميش والعنف. يمكّن الحوار من التعايش مع الاختلاف وليس دونه، ومع احترام التعددية ومنْحِ فضاءً ودوراً اجتماعياً لكل واحد، فضاءٌ مَهُوسٌ بالعَيش المشترك».

أشكر لكم انتباهَكم.

الهـــــوامش:

(*) **الأب. ميشال غيوم:** مدير المركز الأسقفي للدراسات والأبحاث، متحصِّل على شهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية والعربية بالمعهد البابويّ بروما